المنهج التّاريخيُّ والدّراسات المعجميَّة

د.دواح أحمد–المركز الجامعيُّ– مغنية–تلمسان–الجزائر.
Wajih-001@live.fr

إنّ اللغة العربية في أمسّ الحاجة إلى معاجم لغوية متخصّصة ،تكون امتدادا وتكملةً لمعاجمنا المعيارية القديمة،وتوضِّح لنا مسائلَ جديدةً،نذكرُ منها علَى سبيلِ المثالِ لا الحصرِ:

–التّفريق بين ما هو عربيٌّ أصيلٌ لا تخالطه عجمةٌ،وما هو دخيل أو معرّب،جاء وافدا إلى العربية من لغات أُخَرَ،في أعصُر مختلفة،وسأتناول هذا الجانب بتفصيل أثناء الحديث عن الجانب المقَارن من المنهج التاريخي:

–تتبُّعُ سيرة حياة الألفاظ العربية عبر المراحل الزمنية المتتابعة،في مجالات استعمالاتها،والاختلافات التي تطرأ عليها،وملاحظة ما طرأ على الألفاظ من تطور أو تغيُّر شكلا ومضموناً، في كل عصر من عُمر هذه اللغة،وتبيين المعاني الحقيقية والمجازية،وضبط معايير مُحدّدة لذلك،فإذا ما كثرت المعاني الحقيقية للكلمة،أو المعاني المجازية،عمد الدارسون إلى تحديد الزمن الذي يعود إليه كلّ ُ معنىً من خلال العودة إلى أقدم النُّصوص وأوثقها.

واللغة العربية ما تزال في حاجة إلى معجمٍ تاريخيّ تأصيليّ على غرار معجم (أوكسفورد) التاريخي للغة الإنجليزية.

–التعرف على المؤثرات التي تتحكَّمُ في سيرة حياة الألفاظ العربية.وغيرٌ خافٍ علينا أهمية ذلك من جانبين مهمّين:أمّا أحدهما فيقف بنا على أسباب اندثار جملة مهمة من الألفاظ العربية التي عجّتْ بها معاجمنا عن أُفق الاستعمال اللغويّ ،لتصبح رمزا خاصا بالماضي،أو حكرا على فن معيّن ،أو حرفة مخصّصة، أو ظروف بيئية مميّزة للمناخ، أو العادات والتقاليد، أو ما شابه ذلك.

وأما الآخر فيقفُ على مجموعة من العوامل التي يُمكن أن تتحكّم في مستقبيل الثروة المعجمية، وذلك بالوقوف على أسباب موت الألفاظ وحياتها.

يُمثل منهج البحث في أيّ علم من العلوم ظاهرة حضارية تتّحدُ ملامحها،وتتميَّز خصائصها وفق طبيعة المنهج،وما ينطوي عليه من مواصفات علميّة أو غير علميّة،ومن هنا تبرز مظاهر البحث وتتبيّن ثمراته استنادا إلى مُعطيات المنهج وما يُمكن أن يُسهم فيه من إبراز لتلك المظاهر والنّتائج،وبذلك تقومُ طبيعةُ المرحلة الفكريّة لأيّة أمّة من الأُمم،ويتبيّن مدى إسهامها في إثراء المعرفة الإنسانية عبر تاريخها المديد.

يدور"المنهج التّاريخي" Historical method في إطار حصر التّغييرات التي تُصيب اللّغة على مرّ العصور خلال النّظر في أصواتها،وأبنيّتها الصّرفيّة،وتراكيبها النّحويّة،ونظام الجملة فيها،ودلالة ألفاظها،مع محاولة تلمُّس الأسباب التي أدّت إلى هذا التّغيُّر. ويجب على الباحث الذي يتّبع هذا المنهج في معالجة إحدى الظّواهر اللّغوية في العربيّة أن يتعامل مع أقدم المصادر التي وردت فيها تلك الظّاهرة،وعليه أن يبدأ بالنُّقوش المكتوبة،ثمَّ النُّصوص الشّعريّة والنّثريّة الخاصّة بالعصر الجاهليّ،ثمّ النّصوص الخاصّة بالعصر الإسلاميّ...حتىّ يصل إلى آخر نصٍّ وردتْ فيه الظاهرةُ موضوع الدّرس.

وقد نالت تلك الألفاظ عناية فائقةً من المشتغلين بدراسات "علم اللغة التاريخيّ" Historical linguisticsأكثر من غيرها،وأصبح لها علمٌ قائم بذاته هو ما يُسمَّى بـEtymology.

وقد أثنى فريق من المستشرقين على (لسان العرب)و(القاموس المحيط)،لأنه لا يستطيع كتابة هذين المعجمين إلاّ شعبٌ عالٍ جدا في الثقافة والأدب،ولا يستطيعُ جمعَ مثل هذين المعجمين إلاّ الباحثون المتميّزون.ويرى المستشرقون كذلك أنّ الخليل بن أحمد(ت175هـ) يُعدُّ أوّل شخص يحاول تسجيل معاني المفردات الكاملة للغة في العالم،وكان يقصد بذلك جذور الكلمات كلّها،بدلا من الكلمات كلها،وليس في هذا سوى مثال واحد على أنّ العرب توفّر لديهم الموقفُ الصحيح والسّجيّة الموفّقة لتأليف المعاجم.

ويُمكن القول:"إنّ العرب حين وضعوا معجماتهم المجنّسة أو المبوّبة، كانوا مبتكرين غير مقلّدين، ومبدعين غير متّبعين، فلقد دعتهم إلى وضعها دوافعُ عربية محضة،وعلى رأسها خدمة القرآن الكريم كتابِ العربية المقدس،ودستور الدين،وصوْن العربية من الضياع والدُّروس،وحراستها من الخطأ

والدخيل،ومع هذا فإنّه لم تتهيّأ السُبل التي تكفل للعرب الاطلاع على تلك المعجمات الأجنبية القديمة."[1]

وقد استعان المستشرقون بالمعاجم العربية في دراستهم وبحوثهم وأعمالهم العلمية؛لأنها متنوّعة في موضوعاتها،متعدّدة في فروعها،فضلا عن الثقة الكبيرة التي تُحيط بها،وما تميّز بها مؤلِّفوها من اللغويين العرب والمسلمين من الدّقّة والأمانة العلميّة.

ومما لاشكّ فيه أننا في حاجة ماسّة إلى معاجم لغوية تكمل جهود اللغويين المعياريين،فتستدرك عليهم بعض الأمور ومنها:

– الميز بين العربيّ الأصيل والمعرّب أو الدخيل الذي وفد إلى العربية من لغات أخرى،وبيان الفترة الزمنية التي استعارت فيها العربيّة الألفاظ الدخيلة،والسياق الثقافي أو الحضاريّ الذي دخلت فيه، والوسيلة التي تمّ بها ذلك. وهل كان ذلك بتأثير دينيّ أو عن طريق الحروب،أو الهجرات أو المصالح الاقتصادية؟ وما وضع اللّفظ الدخيل في لغته الأصلية:معنىً واشتقاقا ؟ وهل رُوعي في أخذه عن لغته الأصلية الطريقة التي كتب بها في تلك اللغة أو الطريقة التي يُلفظ بها ؟وهل قُدِّر لها الاستمرار والبقاءُ في العربية أو ماتت واندثرت،وما أسبابُ ذلك...؟إلى غير ذلك من أسئلة لم يكن منهج المعياريّين القدامى يتقصّدها،أو يلتزمُ بها.

و"يُراد بالدخيل الأجنبيّ ما دخل اللغةَ العربية من مفردات أجنبية، سواءٌ في ذلك ما استعملهُ العربُ الفصحاءُ في جاهليتهم وإسلامهم،وما استعملهُ مَنْ جاء بعدَهم من المولَّدين.وقد اصطلح المحدثون من الباحثين على أنّ العرب الفصحاءَ هم عربُ البدْوِ من جزيرة العرب إلى أواسط القرن الرّابع الهجريّ وعرب الأمصار إلى نهاية القرن الثّاني الهجريّ،وأنّ المولّدين هم مَنْ عدا هؤلاءِ ولو كانوا من أصول عربيةٍ.ويُطلق على القسم الأوّل من الدّخيل الأجنبيّ،وهو ما استعملهُ فُصحاء العرب،اسم "المعرب" وعلى القسم الثّاني منهُ،وهو ما استعملهُ المولَّدونَ من ألفاظ أعجميّة لم يعربها فُصحاء العرب،اسم "الأعجميّ المولّد"[2]

وقد عُنيَ علماءُ اللّغة بتمييز الكلمات الدّخيلة الأجنبيّة وحصرهاَ،وألَّف بعضُهم في ذلك مؤلَّفات على حِدة.ولعلّ أنضجَ محاولة للقدماء في تحقيق أصول الكلمات تلك المحاولة التي قام به أبو منصور الجواليقي (ت540هـ) حيث أولى الدخيل جُلَّ رِعايته،فسعى يجمعُ ألفاظهُ ويجذِّرُ أُصولهُ،بُغية الوصول إلى الطريق التي دخلت منه،والزمن التي عبرتْ فيه، فكان كتابهُ :"المعرب من الكلام الأعجميّ". وقد جمع الجواليقي في معجمه هذا الكلمات والعبارات التي دخلت في اللغة العربية من اللغات الأخرى،ورتّبها وفق أوائلها فقط ،وشرحها وبيّنَ أصلها،وبه ملحق كشاف(مسرد) ألفبائيّ بالألفاظ التي وردتْ به .رغم أن منهجه لم يكن شاملا واضح المعالم،كما أنّ أدواته في المقارنة وإلمامه باللغات اللازمة لم تكن كافية في كثير مما تصدّى له.

ونذكر من هؤلاء شهاب الدّين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (ت1069هـ)،

ولهُ:"شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدّخيل"،ويأتي كتاب شهاب الدّين الخفاجي جامعا لظاهرتين لُغويتين،هما الدّخيل والعامّية في عصره،فيرفد المكتبة العربية بمصنف مزدوج الموضوع،متفرّع المضمون،متعدّد الفائدة.ومن هنا اكتسب قيمة في المكتبة العربيّة،بحيث بات المصدر الأوفى والمنهل الأصفى للباحثين.ونؤكّد هنا أنّ الدّخيلَ عرفته العربية منذ عصورها الأولى ،كما عرفته في عصورها المتأخّرة والحاضرة،وإن كان الكمُّ أكبر والنّوع أكثر في الآونة الأخيرة.وإنّ اللّغة العربيّة لم تكن بِدْعا بين اللغات في هذا الأمر،فهي تستعيرُ كغيرها،وتقترض من اللغات الأخرى في كل عصر،وليستْ وقفا على العصر الحديث ،عصر الاختراعات والصّناعات وغزو الفضاء...وفي هذا دلالةٌ على حيوية العربية،وقُدرتها على التّأقلم والمرونة مع كل عصر،وكل مخترع ومكتشف،ففيها بذور الحياة التي تُمدُّها دائما بالنُّموِّ والحياة...

وكتاب "شفاء الغليل" صورة للدخيل،ومن حديقته يمكنُ أن نجنيَ رطبا جنية،وفوائد جمّةً،منها:

1-معرفةُ الأمم التي عايشها العربيُّ،وتبادل معها التّجارة،والتقى وإياها في ساحات الوغى،من خلال أصل الألفاظ الدّخيلة.

2- الوقوف على كثير من الصناعات والأعمال التي عرفها العربيُّ،والتي حفظتها موادُّ الشفاه،تشهد لها مادة "رزق" وسواها,كما أنّ مادة "بِرْطيل" تحكي حكايتها...

3- الاطّلاعُ على العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة،والحكايات الشعبية...وما مادّة "خرافة" و"طفيل" وغيرهما إلاّ أمثلة ودلائلُ.فضلاً على الألفاظ التي تخُصُّ الملبس والمأكل...ولا عجب في ذلك،فاللفظةُ مستودعُ معلومات،وحافظة عهود، ومسجّلة وقائع وأيام،فاللّسانُ في الحقيقة إنسان.[3]

وهذا المعجم تجميع هجائيٌّ وفقا لأوائل الألفاظ الدخيلة والمولّدة التي تُردف بشرح لمعناها وبيانٍ لأصلها.ملحقٌ به كشاف ألفبائيّ للألفاظ وآخر بالأعلام.

وقد وضع علماءُ اللغة قواعد لكشف المعرّب والدخيل.فكانت محدودة ودقيقة،ومع أن أغلبهم ما كان يعرف اللغات الأخرى كالجواليقي،والخفاجي والسيوطي،ومع أن أغلب المحققين ما كانوا يعرفونها أيضا إلاّ أن قواعدهم جاءت دقيقة غيْرةً على العربية وسلامتها.

قال أئمّةُ العربية:"تُعرفُ عجمةُ الاسم بوجوه:

أحدها:النقل بأن ينقُل ذلك أحد أئمّة العربية.
الثاني:خروجه عن أوزان الأسماء العربية نحو إِبْرَيْسَم، فإنّ مثل هذا الوزن مفقود في أبنية الأسماء في اللسان العربيّ.
الثّالث:أن يكون أوّله نون ثمّ راء نحو نَرْجِس، فإنّ ذلك لا يكونُ في كلمة عربية.
الرابع:أن يكون آخرهُ زايٌ بعد دالٍ نحو مُهَنْدِز ،فإنّ ذلك لا يكونُ في كلمة عربية.
الخامس:أن يجتمع فيه الصّاد والجيم نحو الصَّوْلَجَان،والجصّ.
السادس: أن يجتمع فيه الجيم والقافُ نحو المَنْجَنِيق.
السابع:أن يكون خُماسيا ورباعيّا عاريّا عن حروف الذّلاقة،وهي:الباء والرّاء والفاء واللاّم والميم والنّون،فإنّه متى كان عربيّا،فلا بدّ أن يكون فيه شيءٌ
منها،نحو:سَفَرْجَل،قُذَعْمِل،قِرْطَعْب،وجَحْمَرِش،فهذا ما جمعه أبو حيان في شرح التسهيل."[4].

وهذه جملةُ أسماءٍ تفرّدت بها الفرسُ دون العرب،فاضطرّت العربُ إلى تعريبها أو تركها كما هي.

فمنها من الأواني:الكوز،الإبريق، الطست،الخوان،الطبق،القصعة،السكرجة.
ومن الملابس:السّمور، السّنجاب،القاقم،الفنك،الدّلق،الخزُّ،الدّيباج...
ومن الجواهر:الياقوتُ،الفيروزجُ،البِجَادُ،البَلُّور.
ومن ألوان الخُبز:السّميذُ،الدرْمكُ،الجِرْدقُ الجِرْمازَجُ،الكعكُ.
ومن ألوان الطبيخ:السّكباج،الدُّوباج،النّاراباج،شواءُ المزيرباج،الإصبيذاج...
ومن الحلاوى:الفالوذج،الجوزينج، اللّوزينج،النّفرينج...
ومن الرَّياحين: النّرجس،البنفسج،النّسرين،الخيريُّ،السّوسن،المرزنجوش،الياسمين،الجلنار.
ومن الطِّيب:المسك،العنبر،الكافور،الصندل،القرنفل."[5]

واللغات متداخلة ببعضها،ولعلّ من دلالة الحيوية في اللغات أنها تتقبّل من غيرها من اللغات كلّما جدت الحاجة إلى هذا.ولقد حدث أن دخل في العربية مادة غزيرة وافرة من أصول عدّة فيها الإغريقيُّ واللاّتينيُّ والفارسيُّ،بَلْهَ الموادّ ذات الأصول السامية التي لا نحسبها من الدخيل،ذلك أنّ أسرة هذه اللّغات جميعها مشتركة في الذي تشمل عليه من أصول.

والذي نعلمه أنّ العربية أمدّت اللغات الأخرى بموادّ كثيرة في مختلف العصور،وليس أمر الدخيل العربيّ في الفارسيّة والتّركيّة بعسير،على أنّ لغاتٍ أخرى قد أخذت من العربية في ظروف متأخرّة موادّ كثيرة،ومن هذه ما شاع منها في اللُّغات الأوربية الحديثة،ولعلّ تاريخ هذه الظّاهرة اللّغوية يرجعُ إلى أزمنة الحروب الصّليبية وما بعدها،ولعلّ شيئا من هذا قد حدث قبل هذا التّاريخ أيضا،ويستطيع الباحث أن يُحصيَ موادَّ عربيّة في كثير من اللُّغات الأوربيّة الحديثة أخذتها هذه اللّغات عن العربية مباشرةً،دون أن يكون هناك حلقة مفقودة أو وسيطا آخر لاتينيّا أو إغريقيّا.[6]

فقد جاءت في إحدى معاقدات صلاح الدّين الأيوبيّ مع الإفرنج سنة587هـ استعماله كلمة(terme)، وتعني هذه الكلمة" الحدّ والأجل،والأمد،والقسط"، وقد جاءت على "تروم" أي الجمع،فقد جُمعت كما يُجمع "فعلٌ" مفتوحُ الفاء ساكنُ العين على فعول.[7]

وما زالتِ الكلمة مستعملةً عند عرب فلسطينَ في هذه الأيام،وهي تعني عندهم الموسم.

*تعدُّ فكرة التّطوّر الدّلالي من أهم الأفكار التي استولت بشكل مُلفت للانتباه في النظريات الغربية الحديثة،وقد سبق العربُ في هذا التفكير،وكان النصُّ القرآنيُّ المقدّس العاملَ الحاسمَ في وجود هذه الظّاهرة،،فاستلهم العرب معانيه من خلال الرجوع إلى المعاني المستعملة ومحاولة تأوُّل أُصولها،وقد بدأت الإشارة إلى ذلك من خلال الصراع العَقَدِيّ حول نشأة اللغة،فمنهم من يراها توقيفيّة،ومنهم من يقرُّ باصطلاحيتها،والأقلية بطبيعتها،وعلى هذا الاختلاف تأسستْ مقولة التّغيّر اللّغويّ بصفة عامّة والتغير الدلالي بصفة خاصة.

وقد برز المنهج التاريخيُّ تحديداً مع علماء الطبيعة،الذين انفردوا بابتداعهم المنهج المقارن،وتأثرا بمنهج "داروين" التطوريّ،واستقرّ عندهم أنّ "اللغة كائن طبيعيٌّ ينمو،وتطورها في الأساس له الصورةُ نفسها التي نجدها في أي مكان آخر من الطبيعة...وترتبط مرحلة التطور بالنسبة لأيّ لغة ارتباطا مباشراً بالعقلية والثقافة والنظرة المستقبلية العامة للشعب الذي يتحدث بها.ومن ثمَّ يجب أن يكون تاريخ اللغة مرتبطا ارتباطا وثيقا بتاريخ الثقافة القومية."[8]

ومن علوم اللُّغة في العصور الحديثة "علم معاني الأسماء" أو "علم الدلالة"،ويُراد به دلالة اللفظ ونشأته واستعماله،ومجال هذا الاستعمال، وتطور الدلالة بتطور الزّمن،وأسباب هذا التطوّر وعوامله،وأول من قام بدراسة تعرض لهذا الموضوع وهو الفرنسيّ Michel Bréalوسمى دراسته Essai de Sémantiqueسنة1898،وخلص في بحثه إلى قواعد عامة في الدلالة وتطور المعنى معتمدا على اللغات القديمة التي تنتمي إلى أسرة واحدة كاليونانية واللاتينية والسنسكريتية.وفي سنة1932 كتب العالمانG.K.Ogden, A. .Richards اكتابهما The Meaning of meaning،وقد عرضا فيه لمسألة الدلالة عرضا شاملا معتمدين على علم الاجتماع والنظم الاجتماعية وفي ضوء مباحث علم النفس الحديث كمسائل العاطفة والانفعال والشعور.

ومن أهمّ ما يُميّز علم اللُّغة الحديث،أنّ جميع اللغات تتغيّر وتتطوّر باستمرار،ويعود ذلك لضرورات ملحّة،وفوق هذا وذاك هو حقيقةٌ لا يمكن تجاهلُها أو القفزُ عليها "لقد حدثت تطوُّراتٌ كبيرةٌ وشاملةٌ في عالمنا المعاصر وفي وسائل الحياة وفي نظرة الإنسان إليها،ولم تكن اللغة بمعزل عن هذه التطورات،فهي أداة التعبير عن حاجات المجتمع،أداة طائعة تلبي الدواعي المتنوعة وتلاحق الحاجات المتجددة."[9]

وفي أوائل هذا القرن رأى اللغويُّ الفرنسيُّ أنطوان مييهAntoine Meillet أن هناك ثلاثة أسباب رئيسية لتغيُّر المعنى هي: اللُّغوية والتَّاريخيّة والاجتماعيّة.ويعقِّب أُولْمَانْ على هذا بقوله:" هذه الأنواع الثلاثة مجتمعةً تستطيع فيما بينها أن توضّح حالات كثيرة من تغيُّر المعنى،ولكنّها مع ذلك ليستْ جامعةً بحال من الأحوال."[10]

وقد يلجأُ أبناءُ اللُّغة الواحدة إلى الألفاظ القديمة ذات الدّلالات المندثرة،فيحيون بعضها ويطلقونه على مستحدثاتهم،ملتمسين في هذا أدنى ملابسة.وقد تُستعملُ ألفاظٌ قديمة لمعانٍ حديثة،ومن هنا يتغيّرُ المعنى.يقول إبراهيم أنيس:"وهكذا وجدنا أنفسنا أمام ذلك الموج الزاخر من الألفاظ القديمة الصورة الجديدة الدلالة...المدفع والدّبّابة والسيارة والقاطرة والثّلاجة والسّخّان والمذياع والذّبذبات والتّسجيل والجرائد والصّحف...وغير ذلك من آلاف الألفاظ التي أحياها النّاس أو اشتقُّوها وخلعوا عليها دلالاتٍ جديدةً تطلَّبَتْها حياتهم الجديدة.وتتمُّ هذه العملية عن طريق الهيئات والمجامع اللُّغويّة،أو قد يقوم بها بعض الأفراد الموهوبين في صناعة الكلام كالأدباء والكتَّاب والشُّعراء،ثم تَفرض تلك الألفاظ وضعَها الجديدَ على أفراد المجتمع، للتّداوُل والتّعامل معها."[11]

ويفيد المنهج التّاريخيّ الذي نحن بصدده في إعداد ما يُمكنُ أن نسميه"المعجم التاريخيّ لألفاظ العربية " الذي يتبع حياة الكلمات والتطور الدلاليّ الذي أصابها على مرّ العصور،حتىّ نصل إلى آخر استخدام للكلمة،ويمكن الإفادة من "المنهج المقارن" في هذا المجال، أي تأصيل المفردات.

يقول أُولمان:"ثم بدأ علماء الاستشراق يتحسّسون جوانب النّقص والقُصور في ميدان المعاجم العربية."ويحدّد هذا القصور في النقاط الآتية:

"أوّل وجوه القصور هذا الطابع المعياريّ الذي تتّسمُ به المعاجم،فهي تذكر نموذجا لغويّا،ولكنّها تهمل التّطوّر اللّغويّ للنّموذج المذكور.

وثانيها ضيق ومحدودية الرُّقعة التي تُغطّيها القواميس العربية إذا قُورن ذلك باتّساع دائرة الثّقافة العربيّة...

وثالث تلك العيوب فُقدان الدّقّة الناتج عن عدم التفريق بين المعنى العام أو الإجمالي لجذر الكلمة وبين المعنى الفعلي الواقعي،فللكلمات دقائقُ وظلالٌ تظهر في سياق النّصّ،وتحدّد ضيق المعنى أو اتّساعه.وتُورد المعاجمُ في أحيان كثيرة بدلا من المعنى الأصليّ للكلمة الشيء المعني..."[12]

إن في وسع المرء أن يستخلص مما سلف بعض الأمور:

أوّلا:لم يكن تنبُّه المستشرقن في القرن التاسعَ عشرَ إلى جوانب النقص في الدراسات المعجمية العربية،آتيًا من فراغ.بل جاء مزامنا لظهور المنهج التاريخي في البحث اللغويّ في ذلك القرن.

ثانيا:لم يكن إغفال العلماء القدامى لذلك عن تقاعس.فإنّ لكلّ منهج ثماره.وقد سار القدامى على مناهج سديدة أسفرتْ عن تلك الجهود الطيّبة التي ما يزال الدرس اللغويّ يُفيد منها.وقد اعتمد عليها المستشرقون،بل اعتمدوها في دراستهم الخاصة،وقلّدوها من أمثال "يعقوب جوليوس" Jacobus Golius (1596–1667م) الذي اقتصر على ترجمة التعليقات الواردة على الجذور اللغوية عند الجوهري(ت393هـ) والفيروز آبادي(ت817هـ) إلى اللاتينية،وكتابه هو(Lexicon Arabico Latinum) رُتّب ألفبائيا بأوائل الأُصول العربية،التي جمع تحتها مشتقاتها مستوفيا إيّاها،ثم يعطي معانيها باللاتينية،ويفصل بين الأصول بخطوط.ملحق بهم سرد(كشاف)ألفبائي لاتيني–عربيّ،صفحاته غير مرقمة.

واعتمد "لين إدوارد ويليام" Lane Edward Willia في وضع معجمه "مدُّ القاموس" على "تاج العروس" والتزم الدقة في ترجمة الكلمات العربية.

تمَّ تجميعه في أربعة وعشرين عاما،يقوم أساسا على معجم "تاج العروس" مع إضافات كثيرة لما أغفلها التاج.رُتّب ألفبائيا بأوائل الأصول العربية. يدرج تحت الأصل جميع مشتقاته ويستوفي معانيها بالإنجليزية.عُني بالتعابير والأمثلة الشائعة والأشعار العربية ومعانيها بالإنجليزية.

نشرت الأجزاء الخمسة عامي1863و1876،ومات المؤلف وقد وصلت التغطية فيما طبع إلى حرف العين.وقد نشر الأجزاء الباقية حفيده المستشرق "ستانلي لين بول" عام1893،وكان المؤلف مزمعا إصدار المعجم في كتابين،ولم ينشر سوى الكتاب الأوّل فقط.

ثالثا:من الطبيعي أن تُسفر الحاجة عن إجراء دراسات جديدة في ضوء الرؤية الجديدة للغة من خلال المنهج التاريخي أو سواه.وليس عيبا أن يُشار إلى مواطن النقص في الدراسات القديمة،بل العيب ألاَّ يُسدَّ النقص ويُنظر إليها على أنها "وُلدتْ بأسنان"

وأمّا المستشرق الهولندي رينهارت دوزي فقد وضع معجما أسماه "تكملة المعاجم العربية"،نقله إلى العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمي.بغداد :وزارة الثقافة والفنون،توزيع الدار الوطنية للتوزيع والإعلان،1978-مج 1-28سم(سلسلة المعاجم والفهارس-21)،صدر أصلا بالفرنسية.Supplément aux dictionnaires arabes

وكان هم المؤلِّف أن يجمع فيه مالم يَرد في المعاجم العربية القديمة التي وقفت باللغة في حدود من الزمان والمكان معينة،فيثبت فيه الألفاظ الطارئة التي دعت إليها ضرورات التطوّر،وفرضها تقدُّم الحضارة ورقيّ العلم.،واستعملها مؤلِّفو العصور الوسيطة ومَن جاء بعدهم من مؤرِّخين وقُصَّاص وجُغرافيِّين ونباتيِّين وأطبّاء وفلكيِّين،وغيرهم مما أهملته المعاجم القديمة.غير أنه يهمل ألفاظ المتصوّفة،ومصطلحات العلوم العربية والدينية وعلوم الأوائل.وذكر في معجمه كثيرا من الألفاظ العامّيّة دون أن يُشير إلى أنّها من كلام العامّة.رُتّب ألفبائيّا بأوائل الألفاظ العربية دون مراعاة لأصليّ أو مزيد،إلاّ أنه عند ذكر الأصل يورد تحته جميع صوره ومشتقاته ويفصل في معالجته.يُردف اللفظة العربية بمعناها بالفرنسية،ويُورد كثيرا من العبارات وأمثلة الاستعمالات.يشير إلى مَن أخذ عنهم بمختصرات أثبت مفتاحها في صدر المعجم.صدر أوّل مرّة عام1881،وصدرت له مصوّرة عام 1928،وصدرت له ترجمة إلى اللُّغة العربية .

ويوم أُنشئ "مجمع اللغة العربية"نصّ في مرسوم إنشائه عام1932 على أن من أهمِّ أغراضه:

(أ) "أن يُحافظ على سلامة اللّغة،وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدّمها،ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر".

(ب) "أن يقومَ بوضع معجم تاريخيٍّ للغة العربية".

وقد أخذ نفسه بذلك منذ البداية،فكوّن لجنة للمعجم من كبار اللغويين العرب والمستعربين،وسارعتْ هذه اللجنة إلى تحديد الخُطَّة،ورسم المعالم الرئيسية لما ينبغي أن يكون عليه المعجم المجمعيُّ في القرن العشرين.

وشاءت الأقدار أن يكون من بين أعضائها مستعربٌ ألماني عُني بالمعجم العربي منذ أوائل هذا القرن،ورغب في أن يخرجه على غِرار معجم أُكسفورد التاريخي،فيصعد إلى النّصوص الأولى ليوضح معاني الكلمات،ويتتبّع تاريخها وتغيّر مدلولها،ونعني به "فيشر"وقد أبلى في ذلك بلاءً حسنا،وقام بجهود مضنية،شاء أن يُتوِّجها بإخراجها تحت كنف المجمع اللغويّ ورايته.ولم يتردَّدِ المجمع في أن يُجيبه إلى ذلك،وأمدّه بوسائل العون المختلفة.وبعد عمل مُتَّصل في الجمع والتنسيق طوال أربع سنوات تمهيدا للطبع والنشر،جاءت الحرب العالمية الثانية فوقفت كل شيء،وباعدت بين "فيشر" ومصر،وحالت دون الإشراف على معجمه.وما إن وضعت الحرب أوزارها حتىّ قعد به المرضُ عن أن يعود إلينا،وفقدناهُ عام 1949 قبل أن يُخرج معجمه إلى النُّور،وعبثا حاول المجمع أن يلمَّ شَعْثَ ما تفرّق من أصوله بين ألمانيا ومصر، ولم يقف من جهود أربعين سنة كاملة إلاّ على جُذاذات غير مستوفاة،حرصَ على أن يُرتّبها ويضعَها تحت تصرُّف الباحثين والدّارسين.ولم يستطع أن ينشر من معجم "فيشر" إلاّ مقدّمة ونموذجا صغيرا،سبق للمؤلِّف أن أعدَّهما.[13]

أطلق "فيشر" على مشروعه اسم (المعجم اللغوي التاريخي)وقد صدره بمقدّمة طويلة تحدث فيها عن النقص في المعاجم العربية،وبيّن ما في بعضها من الخلل، ثم قال:"يجب أن يشمل المعجم على كل كلمة بلا استثناء وجدت في اللغة،وأن تعرض على وجهات النّظر السّبع التّاليّة:التّاريخيّة،والاشتقاقيّة،والتّصريفيّة،والتّعبيريّة،والنّحويّة،والبيانيّة،والأسلوبيّة."[14]

وأخذ "فيشر" يشرح كلّ ناحية من النّواحي السّابقة على النّحو الآتي:

1-الناحية التاريخيةHistorcal:لا بدّ من تقييد الكلمات التي وصلت إلينا،مع بعض الشّواهد،ونسبة كلّ شاهد إلى صاحبه،ملتزمين الناحية التاريخية،بحيث نرى متى ظهرت

الكلمة،ثم آخر تطوّر وصلت إليه،وهل لاقتَ ْ موتا في الزمن القديم أو الحديث،أو اندثر معنى من معانيها،واستُعيض عنه بمرادف.

2-الناحية الاشتقاقيةEtymological:وتختصُّ ببحث أصل الكلمة ونسبها،وهذه الناحية يتّصل بها علم ضبط الهجاء،وعلم العَروض للكلمة،ويرى "فيشر" أنه يجب ردُّ المعربات إلى أصولها على قدر الإمكان،ولا بد أن يكون مؤلف المعجم العربي متمكّنا من اللغات السامية الأخرى،وكذلك اللغة الفارسية،واليونانية، والتركية وغيرها.

3-الناحية التصريفيةFlaxional: وتختص بتصريف الأفعال والأسماء وغيرها،ولا يهم إيرادُ شواهد عليها،أما الصيغ الأخرى فيجب أن نأتي لها بكل الشواهد الممكنة،حتى نتعرف على مدى صحتها.

4-الناحية التعبيريةSemasiological:وهدفها تحقيق معنى الكلمة أو معانيها،وفي حالة وجود معانٍ كثيرة تُرتَّب هذه المعاني على حسب علاقتها التاريخية والعقلية،كما يجب تقديم المعنى العام على المعنى الخاص،والمعنى الحسّي على المعنى العقليّ،والمعنى الحقيقي على المعنى المجازي،ويُمكن الاستعانة هنا بعلم المجاز،والاشتقاق،والتّرادف.

5-الناحية النحويةsyntatical:ومن شأنها تناول جميع الصلات القوية التي يمكن أن تربط كلمة بأخرى،وترتيب الكلام في السِّيَّاق،وغيرها من النّواحي النحوية.

6-الناحية البيانيةPharseological:وتختص ببعض العلاقات التي أستشعر منها أنها لازمة للكلمة على الدوام،ومن هذه العلاقات صيغ الاتباع والمزاوجة،والمشاكلة،والتّوكيد للمعنى،وازدواج عبارتين متضادتين للتعبير عن معنى واحد مبالغ فيه.

7-الناحية الأسلوبيةStylistic:تحدد المحيط اللغوي الذي تستعملُ فيه الكلمة أو التعبير أو التركيب استعمالا عاما أو خاصا.[15]

هذه هي النواحي السّبع التي يرى "فيشر" وجوب توافرها في المعجم،ومن ثم فإنّ معجمه يجب أن يشتمل عليها،ومعجمه معجم تاريخيّ للُّغة العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجريّ،أي حتى مُنتهى ما وصلت إليه العربية من الفصحى والكمال.

إن مشروع "فيشر" الذي مات بموته عام1949،لم يتجاوز في حظه من الكمال ما حظي به مشروع معجميّ آخر للمستشرق الألماني"كريمر"Kraemer،فقد ظهر من ذلك عام1952-1954 ملزمتان فيهما مادة الهمزة،بعنوان"معجم تيودور نولدكه للغة العربية الفصحى"وقد نسبه "كريمر" إلى "نولدكه" لأنه اعتمد فيه على حواشي "نولدكه"(المتوفَّى1930) وتعليقاته التي عقّبَ بها على موسوعة "فرايتاج" العربية اللاتينية. وهو معجم عربي ألماني إنجليزي.يعطي اللفظة العربية مع المقابلين الألماني والإنجليزي،ترتيبه هجائي بأوائل الأصول العربية.

وبالرغم من تبني المجمع لمعجم "فيشر"،ورغبته في نشره،لم يصرفه ذلك عن أن يضطلع بوضع معجم شامل يستوعب اللغة في مختلف عصورها.واكتفى بأن يُسمِّيه "المعجم الكبير" تفاديا لما يقتضيه المعجم التّاريخي من أعمال تمهيديّة لم يؤخذ فيها بعد،وقام على أمره منذ سنة1946.واستطاع أن ينشر منه عام1956 جزءً في نحو500 صفحة،عدَّه مجرّد تجربة دعا المتخصِّصين في اللُّغة إلى قراءتها،وتسجيل ما يمكن أن يُلاحظوه عليها،راجيّا أن يُرسلوا إليه ملاحظاته مشكورين.

نحن بحاجة إلى عدّة أنواع من المعجمات،ولعلّ أهمّها " المعجم التاريخي "كما يقول عدنان الخطيب.نحن في حاجة إلى معجم تاريخيّ للغة العربية يقوم على الأسس العلمية الثابتة،فهذا المعجمُ يعالج نشأة الألفاظ،وتقسيمها إلى أنواع ثلاثة بحسب طبيعة اللغة العربية:

1-النوع الأوّل:الألفاظ العربية في اللغات السامية.
2-النوع الثاني:الألفاظ المعربة من الفارسية أو اليونانية أو اللاتينية وغيرها.
3-النوع الثالث:الألفاظ العربية التي ابتكرها العربُ والتي لا نجد لها نظيرا في السّاميّات.
أمّا النّوع الأوّل فتندرج تحته أصنافٌ أيضا:

الصّنف الأوّل:ألفاظٌ ساميّة قديمة تشتركُ فيها اللّغات السّاميّة جميعها أو أكثرها،وهي موجودة في العربيّة من السّامية الأمّ مباشرة في أغلب الأحيان.

الصّنف الثّاني:ألفاظ ساميةٌ غير مشتركة في جميع السّاميّات،وإنما وُجدت في السّريانيّة أو العبريّة ثمّ انتقلت إلى العربيّة.

فالمعجم التاريخي يتتبع نظائر اللفظ من الصنف الأوّل في جميع اللغات السامية ومعانيها فيها،ويتتبع في الصنف الثاني اللغة الأصلية للفظ،ثم الطريق الذي انتقل فيه إلى العربية، سواء أكان هذا الطريق مباشرا بين اللغتين،أو عن طريق لغة أخرى سامية أو آرية،كما حدث في كثير من الألفاظ السريانية التي انتقلت إلى العربية عن طريق الفارسية.

ويُستحسن في هذا الصنف (الثاني) أيضا تتبُّع نظائره التي أخذتها لغة غير عربية من لغته الأمّ،لنرى الفروق بين ما اعتراهُ في العربية وفي غيرها حين انتقل إليها،ويحاول هذا المعجم أن يصل إلى التاريخ الذي انتقل فيه هذا اللفظ إلى العربية،والصور التي تشكل بها،ثم يُعالجهُ كبقية الأنواع الآتية.

أمّا المعرّب فيعالجه كالصّنف الثّاني من السّاميّات،أعني:أصله،وطريقة انتقاله إلى العربية،وزمنه،وصوره فيها،ونظائره التي أخذتها لغات أُخرى من لغته الأمّ.ويقتصر الأمر في الألفاظ العربية الخالصة على محاولة معرفة زمن ظهورها،وعند أيّة قبيلة،والصور التي ظهرت به للمرّة الأولى.ثم تُعالج هذه الأنواع المختلفة علاجا واحدا،لأنها أصبحت عربية،فيتتبّع المعجم تطوّرها في المعنى والصّورة في العصور المختلفة،وربّما كان ذلك في الأقاليم المتنوّعة حتىّ يومنا هذا".[16]

الهوامش

[1] محمّد حسين آل ياسين:الدّراسات اللّغوية عند العرب،منشورات دار مكتبة الحياة،بيروت،ط1980،ص223.

[2] علي عبد الواحد وافي:فقه اللغة،دار نهضة مصر للطبع والنشر،القاهرة،ط1973،2،ص199.

[3] شهاب الدين الخفاجي:شفاءُ الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل،تحقيق:د.محمد كشّاش،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1418،1هـ/1998،ص5.

[4] السيوطي:المزهر في علوم اللغة وأنواعها،شرح وتعليق:ممد أبو الفضل إبراهيم،محمد جاد المولى،علي محمد البجاوي،المكتبة العصرية،صيدا،بيروت،ط1425،1/2004،ج1،ص220.

[5] أبو منصور الثعالبي:فقهُ اللغة وأسرارُ العربية،شرحه وقدم له:د.ياسين الأيوبي،المكتبة العصريةُ،صيدا،بيروت،ط1419،1/1999،ص339-340.

[6] إبراهيم السامرائي:فقه اللغة المقارن،دار العلم للملايين،بيروت،ط1987/4،ص165.

[7] مصطفى جواد:المباحث اللغوية في العراق،القاهرة،معهد الدراسات العليا،1955م،ص118.

[8] ملكا افتش:اتجاهات البحث اللسانيّ،ترجمة: وفاء كامل فايد وسعد عبد العزيز المصلوح،المجلس الأعلى للثقافة،ط2000/1،ص 67.

[9] محمد حسن عبد العزيز :مدخل إلى علم اللغة،دار الفكر العربيّ،ط1998،ص145.

[10] استيفن أُولمان:دور الكلمة في اللّغة،ترجمة:كمال بشر،القاهرة،ط1،ص160/157.

[11] إبراهيم أنيس:دلالة الألفاظ،الأنجلو المصرية،ط1972،ص147/146.

[12] ستيفن أولمان:دور الكلمة في اللغة،ترجمة:كمال بشر،القاهرة،ص70.

[13] المعجم الوسيط:مجمع اللغة العربية،الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث،ج1/ص7،8.

[14] فِيشرْ :المعجم اللُّغويُّ التّاريخيُّ،الطّبعة الأُولى،القاهرة،سنة1967.

[15] محمود سليمان ياقوت:منهج البحث اللُّغويّ،دار المعرفة الجامعيّة،الإسكندريّة،ط2002،ص116/114.

[16] عدنان الخطيب:المعجم العربيُّ بين الماضي والحاضر،منشورات معهد الدّراسات العربيّة التّابع لجامعة الدُّول العربيّة،القاهرة،ط1976،ج2،ص765/764.